أبو مدين شعيب (ت 589 هـ/1193م) دفين العُبّاد بتلمسان

-حقائق جديدة حول غياب المعالم الزمنية في سيرته-

Abū mādīān šūʿāīb (d. 589 AH / 1193 AD) buried in Tlemcen, Al-ʾūbād

-New facts about the absence of temporal milestones in his biography-

مرتاض عبد الحكيم[1]، باحث مشارك بمخبر الدراسات الحضارية والفكرية، جامعة أبي بكر بلقايد -تلمسان (الجزائر)،
h_mortad@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/06/15	تاريخ القبول:2021/07/31	تاريخ النشر:07/08/2021

الملخص:

يعدّ أبو مدين شعيب من أساطين التصوف الإسلامي. وُلد في إشبيلية، ونزح في مطلع شبابه إلى فاس، ثم حج وأقام في المشرق مدة، ثم عاد إلى فاس، واستقر أخيرا في بجاية. وتوفي قرب تلمسان وهو متجه إلى مراكش بطلب من السلطان الموحدي أبي يوسف يعقوب، فدُفن في العُبّاد الواقعة آنذاك في ضاحية تلمسان .

واهتم بتدوين سيرته موجزةً أو مفصّلةً عدد كبير من المؤرخين والصوفية وغيرهم. ويوجد من بينهم معاصرون له أو قريبون من عصره مثل ابن عبد الكريم التميمي الفاسي، وأبي يعقوب يوسف التادلي المعروف بالزيات، وابن الأبّار، وابن الأثير صاحب الكامل في التاريخ. ولكن لا أحد منهم أفادنا بشيء عن المعالم الزمنية في حياته. وهكذا بقينا لا نعلم شيئا عن عمره حين نزوحه من الأندلس، وكذلك المدة التي أقامها في فاس، والسنة التي توجّه فيها للحج، والمدة التي قضاها في المشرق، الخ. ويرتبط بتلك التواريخ المجهولة مدى صحة ما قيل عن مشاركته في معركة حِطِّينَ، وتعرّض ذراعه للبتر فيها. ومهما كان الحال فليس من المقبول أن يعمد بعض معاصرينا إلى تشويه سمعته دون تروٍّ أو تثبّت.

كلمات مفتاحية: أبو مدين شعيب; التصوف الإسلامي; تلمسان; العباد; إشبيلية.

Abstract:

Abū mādīān šūʿāīb is considered one of the elders of Islamic mysticism. He was born in Seville, and moved at an early age to Fez. Then, he made a pilgrimage and lived in the East for a while and returned to Fez before his settlement in Bejaia. He died near Tlemcen while heading to Marrakesh in his request of the Almoravid Sultan Abū yūsāf yāʿqūb He was buried in Al-ʾūbād located at that time in the area of Tlemcen.

A large number of historians, Sufis, and others were interested in writing his biography, briefly or with details. Among them there are contemporaries or close to his time, such as Ibn ʿābd al-kārīm al-tāmīmī al-ʾfāsī abū yāʿqūb yūsāf al-tādlī, known as Al-zayāt , Ibn al-ābār, and Ibn al-aṯīr , the writer of Al-kāmil fī al-tārīḫ . But none of them provided us about the temporal milestones of his life. Thus, we remained unaware of his age when he was expelled from Andalusia, as well as the period he resided in Fez, the year in which he went for the pilgrimage and the period he spent in the East, etc. Linked to these unknown dates is the authenticity of what was said about his participation in the Battle of " Hiṭīn ", when his arm was amputated. Whatever the case.

Keywords: Abū mādīān šūʿāīb; Islamic Mysticism; Tlemcen; Al-ʾūbād; Seville.

[1] – المؤلف المرسل: مرتاض عبد الحكيم، h_mortad@yahoo.fr.

1.مقدمة:

هو أبو مدين شعيب بن الحسين (وقيل ابن الحسن) الأنصاري الأندلسي الإشبيلي. خرج من بلده في الأندلس، ودرس وتصوّف في فاس، ومنها خرج للحج، ثم عاد إلى فاس، وكان له بها منزل، فمكث هناك مدة قبل أن يستقر في بجاية. وكثر فيها تلاميذه الذين قصدوه من الآفاق، ومنهم محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الذي قال عن شيخه إنه خرّج «**ألْف تلميذ ظهرت على يد كل واحد منهم كرامة**»[1]. ونعتقد أن الصحيح المؤكّد من سيرته العطرة يغني عن مثل هذه المبالغة؛ فقد أشاد بأفضاله أو تأثيره الفكري كل الذين ترجموا له، ولا يكاد يخلو من ذكره كتاب من كتب التاريخ والتراجم العامة والتصوف التي أُلّفت بعد وفاته[2]. وخُصّ بمؤلفات ودراسات تناولت سيرته أو إنتاجه الفكري مثل التي وضعها كل من يوسف بن موسى الجذامي المنتشافري الأندلسي من أهل رندة (≈**767هـ/ 1366م**)[3]، وأبي العباس أحمد بن حسن بن الخطيب القسنطيني المعروف بابن قنفذ (**.803 أو 810هـ/ 1401 أو 1407م**)[4]، وشهاب الدين أحمد بن إبراهيم الصديقي المكي المعروف بابن علان (**.1033هـ/ 1624م**)[5]، وبارْجيس([6]Bargè ، وأحمد بن مصطفى العلاوي (**.1353هـ/ 1934م**)[7]، وحسين فارسي[8].

وتتفق أكثر التآليف التي تناولت سيرته وفكره على إبراز المواضيع الآتية فيهما:

.نزوحه من الأندلس إلى المغرب الأقصى، وصلته فيه ببعض الشيوخ مثل علي بن إسماعيل بن حرْزهم، وأبي عبد الله الدقّاق، وأبي يعزى.

.حجه والتقاؤه في الموسم بعبد القادر الجيلاني.

.ذيوع صيته بعد رجوعه من الحج إلى فاس، وانتقاله بعد ذلك إلى بجاية، وبقاؤه فيها حتى استدعائه من لدن السلطان الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور (**580-595هـ/ 1184-1199م**)، ووفاته قرب تلمسان في طريقه إليه.

.ذكر شيء من أقواله والوقائع والمواقف الدالة على علمه وولايته.

وتبقى بعد ذلك جوانب كثيرة من حياته يلفّها غموض شديد، أو تطمسها الروايات المتناقضة التي يسندها تلاميذه إليه، أو تضيع في زحمة الخوارق ما صحّ منها وما بطل. ومن أبرز النقائص التي لم يلتفت إليها رواة سيرته وكتّابها الأوائل إهمالهم ذكرَ أيّ معلم زمني فيها إلا ما ندر، وكأنهم تواطأوا عليه. وقد حدث عندهم هذا مع أن المعالم الزمنية في سير الأشخاص ليست ترفا معرفيا؛ بل يجد الباحث نفسه في غيابها عاجزا عن ضبط المراحل الثقافية والاجتماعية والفكرية التي مروا بها في حياتهم، ومنها معرفة المدة التي تفرغوا فيها للدراسة، وتحديد عمرهم خلال ذلك، والتوصّل إلى معرفة الخط الزمني لتنقلاتهم، وحساب مُدَد إقامتهم في مختلف الأمكنة التي حلّوا بها. وكلما تعدّدَ ذكر المعالم الزمنية في سيرهم تَمكنّا بسهولة أكبر من الحكم الموضوعي الدقيق نفيا وإثباتا على كثير من الأحداث التي تتخللها، وتتناقض الروايات بشأنها. وتزداد الحاجة إلى معرفتها في سير الصوفية لأنهم أكثر عرضة من غيرهم لإدخال أحداث أسطورية في حياتهم.

ولمّا كادت سيرة أبي مدين تخلو من المعالم الزمنية صرنا جاهلين لجملة من الحقائق المفصلية الهامة في حياته، ومنها سنة ميلاده ووفاته وعمرُه، ومقدارُ سنّه حين نزوحه من مسقط رأسه بالأندلس إلى بلاد المغرب، والسنة التي غادر فيها فاس، والسنة التي حج فيها، ومدة إقامته بعد ذلك في كل من فاس وبجاية، وفي غيرها من البقاع. وقد نُسبت إليه بعض الأنشطة والأفكار التي يصعب التسليم بإسنادها إليه؛ ومن أشهرها انضمامه إلى جيش صلاح الدين لقتال الصليبيين، ومشاركته في معركة حِطّينَ التي دُحر فيها الصليبيون، وجلَوْا إثرها عن القدس الشريف. وقيل إنه جُرح في تلك المعركة وبُترت إحدى ذراعيه. ولم يتورع بعض معاصرينا عن طعنه في عقيدته، وعدّه من شيعة العُبَيديين في مصر، الخ. ونحاول فيما يلي مناقشة تلك المسائل، وتبيان وجه الحقيقة فيها. وعمدنا للتدليل على صحتها أو بطلانها إلى ربطها ببعض الحقائق الموضوعية.

2. الخلاف حول سنتي ميلاده ووفاتِه:

حدث خلاف كبير في تقدير سنة ميلاده؛ فذكر بعضهم أنها نحو **492هـ**[9]، واختار بعضهم الآخر **520هـ** تقريبا[10]، وذكر غيرهم سنوات بين هذه وتلك. وأضرب الأوائل مثل التميمي الفاسي **(. 603 أو 604هـ/ 1207 أو 1208م)**، والتادلي **(.627 أو 628هـ/ 1230 أو 1231م)** وابن عربي **(. 638هـ/ 1240م)** عن الإشارة إليها. ووقع الاختلاف كذلك في تحديد سنة وفاته من **580هـ**[11] إلى **594هـ**[12].

ونعتقد أنه لولا ارتباطها بفترة حكم السلطان الموحدي أبي يوسف لكان الخلاف حولها أشدّ.

ويختلف تقدير عمره تبعا لما سبق؛ فهو يزيد على القرن إن صحّ أنه عاش من **492** إلى **594هـ**، وما نراه يصحّ. ولكنه لا يزيد على الستين لو ثبت ميلاده نحو سنة **520** ووفاته نحو سنة **580هـ**، وما نراه يثبت. وذكر ابن العماد الحنبلي أنه توفّي «**وقد قارب الثمانين**»[13]. وإذا كان جهل سنة الميلاد مقبولا فإن من المستغرب حقا أن يقع كل ذلك الخلاف حول سنة وفاة شخص عظيم الشهرة مثل أبي مدين مع كثرة تلاميذه، وعموم الاعتقاد بولايته، واهتمام علماءَ كثيرٍ بتسجيل جانب أو أكثر من سيرته بعيْد وفاته. ونعتقد أن ابن عربي أوثق من غيره في تحديد سنة وفاته، ويحملنا على ترجيحه قربه الزماني والمكاني من الحدث. وذكر أنه «**درج [أي توفي] سنة تسع وثمانين وخمسمائة**»[14]. وكان ابن عربي موجودا بتلمسان سنة **590هـ**[15].

3. سبب نزوحه من الأندلس وزمنه:

يُذكر في سبب هجرته من الأندلس أنه كان بقصد تعلّم القراءة والصلاة في رواية[16]، أو للتخلّي عن الدنيا في رواية أخرى[17]. وسواء أكانت الأولى أم الثانية أم هُما معا فهل أقفرت بلاد الأندلس في عهده من الكتاتيب؟ وهل ضاقت عن أن يجد بها رابطة أو خلوة يتعبد فيها حتى يُضطر إلى قطع البحر من أجل ذلك؟ إن تلاميذه الذين رووا كلامه عن رحلته هذه لم يكن يعنيهم البحث في هذه المسائل، بل وجّهوا كل اهتمامهم إلى تسجيل الخوارق التي تخللتها مثل مواجهة أبي مدين لسيف أخيه بعود كان في يده، وتَمكّنِه من تفتيت السيف به وجعْله يتطاير قطعا[18]. ولم يأبهوا حتى باستفسار شيخهم عن سنة خروجه من الأندلس أو عمره آنذاك. وهكذا يبقى علم ذلك مكتوما في طي الغيب .

وكذلك لم يذكر مترجموه المعاصرون له أو القريبون من عصره عن تعلمه شيئا غير بعض العلوم الدينية. وصوّرتْه الروايات التي تناقلوها شخصا أميّا وهو في مطلع شبابه عند نزوحه إلى المغرب الأقصى، وإذا به عند دخوله فاس يحضر حلقات كبار علمائها. ولا شك أنهم كانوا يقدّمون دروسهم بالفصحى. فكيف كان في وسعه أن يفهم عنهم ولمّا يستوعبْ مبادئ اللغة وعلومها؟ وهل يستطيع شخص أميّ أن يتمثل التصوف ومصطلحاته الموغلة في التجريد؟ ومن المعلوم أن أبا مدين قرض الشعر، وألقى الوعظ ، وكتب النثر بأسلوب راق قويم؛ ولا نعلم أن أحدا من مترجميه المعاصرين له أو القريبين من عصره ذكر كلمة عن ظروف دراسته لعلوم اللغة، بل أهملوا الكلام حتى عن ظروف تعلمه للحروف الهجائية ومبادئ القراءة والكتابة. وربما كانوا يعدّون مهاراته الأدبية من العلم اللدُنّيّ، فلماذا البحث في مَنشئها خارج ذلك؟ ومما يقوّي هذا الاعتقاد زعْمهم أنه لم يتجاوز في قراءة القرآن سورة الملك[19]، وأنه علّل ذلك بقوله «**كانت سورتي، فوجدتها سِدرتي؛ ولوتعديتها لأحرقتني سبحات الوجه الكريم**»[20]. فكيف نصدّق أن القرآن يحرق المؤمن وهو نور يبدد ظلمات الجهل أمامه ويهديه سواء السبيل؟

4. ما هي السنة التي حج فيها؟

لقد كان ارتحاله إلى فاس ثم سفره منها لأداء فريضة الحج من أهم الأحداث في حياته. بيد أن معاصريه الذين ترجموا له كالتميمي الفاسي في «**المستفاد**»[21]، والتادلي في «**التشوف**»[22]، وابن الأَبّار **(.658هـ/ 1260م)** في «**التكملة**»[23] لم يذكروا أية إشارة تاريخية عن دخوله فاس أو خروجه منها، أو تحديد الموسم الذي حج فيه. بل إن التميمي الذي صحبه في فاس لم يكد يذكر من سيرته غير قوله «**أدركته وصحبته طول إقامته بفاس**»[24]. وكذلك معاصره التادلي لم يذكر أي

سبب لمغادرته فاس، ولا نجد عنده ذكرا للحج. ونقل عن أحد تلاميذه أنه سمع شيخه يقول: "**ولم أزل سائرا إلى أن وصلت بجاية فأقمت بها**»[25]. وأشبههم في ذلك الغبريني **(.704هـ/ 1304م)** الذي جاء بعدهم إلا انه امتاز عنهم بقضاء حياته في المدينة التي استقر فيها أبو مدين. وتؤكد كثير من مراجع ترجمة أبي مدين أنه التقى في مكة بالشيخ عبد القادر الجيلاني **(.561هـ/ 1166م)**[26]، ولكن الذين ترجموا للجيلاني سكتوا هم الآخرون، في حدود علمنا، عن ذكر السنة التي حج فيها. ولم يحج الجيلاني إلا مرة واحدة، وكان في صحبته ولده عبد الرزاق[27] **(528-603هـ/1134-1207م)**. وإن جاز لنا أن نفترض تجاوز عبد الرزاق سنَّ الثامنة عشرة في تلك الحَجة استنتجنا أن أبا مدين وافى الموسم ما بين سنتي **546** و**561هـ**.

5. كم هي مدة إقامته في بجاية؟

إنّا لا نعلم يقينا المسار الذي سلكه أبو مدين عند إيابه من الحج، ولا المدن التي توقّف فيها أو سكنها على الترتيب، وإن كنا نعلم أنه أقام مدة في فاس؛ إذ ورد عند التادلي أن المرأة الصالحة فاطمة الأندلسية ذهبت "**من قصركتامة إلى مدينة فاس لزيارة أبي مدين**"، وأن الشيخ أبا مدين قدم عليه عند مطلع الفجر ضيف من مكة فذبح له كبشا[28]. فالنص يدل بوضوح على أنه بعد عودته من الحج سكن أيضا فاس، وكان زوّار يقصدونه فيها من الأماكن القريبة والبعيدة مما يدل على اشتهار أمره بعد إيابه من الحج. ويُستبعد أن تكون عودته إلى فاس من أجل الدراسة كما توهّم بعض الباحثين[29]؛ فالمعروف من مصادر سيرته أنه درس في فاس بعد نزوحه من الأندلس[30]، أي قبل خروجه إلى الحج لا بعده. ولكن متى كانت عودته إلى فاس؟ وكم بقي هنالك؟ هما سؤالان لم نجد لهما جوابا في المصادر التي اطلعنا عليها .

وأقدم معلم زمني محتمل لاستقراره في بجاية هو سنة **581هـ/ 1185م**؛ فقد نقل الغبريني من برنامج أحد تلاميذ أبي مدين، وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد الصنهاجي القلعي **(.628 أو 640هـ)**، أنه درس عليه أحد الكتب "**بداره ببجاية سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة**»[31]. ونعتقد وقوع تصحيف في نسْخ هذا النص لأن القلعي توفّي بعد السنة المذكورة بنحو قرن. ولعل الصواب هو "**سنة إحدى وثمانين وخمسمائة**" مثلما ذكره ابن قنفذ[32]. غير أن هذا المصنّف ذكر في موضع آخر أن أبا مدين كان بإفريقية يوم 9 شعبان سنة **584هـ**، "**وبعده استقرببجاية**»[33]. فهو يقول إن أبا مدين استقر في بجاية بعد **9شعبان 584هـ**، ولكنه يذكر كذلك ما يدل على أنه كان له دار في هذه المدينة قبل ذلك بثلاث سنوات، وكان يتردد عليه فيها بعض تلامذته. وقد يزول هذا التناقض إن افترضنا أن أبا مدين كان يتنقل ما بين بجاية والبلاد الواقعة شرقها[34]، ولم يستقر في بجاية نهائيا إلا بعد **9** شعبان **584هـ**. ولكن تعوزنا النصوص لاعتماد هذا الاحتمال.

ونخلص مما سبق إلى أن العلاقة الزمنية لأبي مدين ببجاية وغيرها من المدن التي سكنها يكتنفها غموض شديد، ولا نعرف منها يقينا أو على سبيل التقريب إلا أنه كان موجودا في بجاية سنة **581**، وأنه استقر فيها نهائيا بعد **9شعبان 584**، وأنه أُخرج منها سنة **589هـ**، وهي السنة التي توفي فيها تبعا لِما نقلناه عن ابن عربي في فتوحاته. ونجد مع ذلك من يذكر، دون توثيق، أنه استقر في بجاية منذ سنة **559هـ/ 1163م**، "**ومكث فيها خمسة عشرعاما**»[35]، أي أنه، تبعا لهذه المدة، خرج منها في سنة **574هـ**. ولكن المعروف أنه لم يخرج منها نهائيا إلا في عهد المنصور الموحدي الذي تولى الحكم بعد هذه السنة بستة أعوام.

6. هل شارك في معركة حطّين وحروب أخرى؟

نص بعضهم على أنه قاتل في معركة حِطِّين ضد الصليبيين، وأصيب بجروح وبُترت إحدى ذراعيه. وكانت مشاركته في القتال صدفة عند بلوغه أرض الشام وهو قاصد حج بيت الله الحرام[36]. ونلاحظ قبل كل شيء أن هذه الرواية لا أثر لها في مصادر ترجمته المبكّرة كمستفاد التميمي، وتشوّف التادلي وتكملة ابن الأبّار، ولا في أعمال الشيوخ المشهورين بالتروي والتمحيص مثل الإمام الذهبي الذي ترجم له في "**سير أعلام النبلاء**»[37]، و"**تاريخ الإسلام**»[38]، و"**العبر**»[39]. ولا

وجود لها أيضا، في حدود اطلاعنا، عند المؤرخين الذين سجلوا وقائع معركة حطين، وهم كثير[40]. من أجل ذلك وجب علينا تفحّص هذا الخبر للتأكد من صحته أو زيفه. فمن المعلوم أن أبا مدين حج في حياة الجيلاني المتوفَّ سنة **561هـ**، ومن المعلوم ثانيا أنه عاد بعد ذلك إلى بلاد المغرب الأوسط أو غيره (ولا يضر أن نتقبل جدلا أنه لازم الجيلاني حتى وفاته تبعا لبعض الروايات[41])، ومن المعلوم ثالثا أن معركة حطّين وقعت سنة **583هـ**؛ فنستنتج أنه عند وقوعها كان قد عاد من حجه ورحلته المشرقية، وأن القول بقتاله فيها إلى جانب صلاح الدين الأيوبي لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير التي كثيرا ما تُلفّ بها سير الصوفية، وتُنقل عن مختلقها جيلا بعد جيل دون رجوع إلى المصادر، أو مقارنةٍ بالحقائق الموضوعية، بل يتداولونها تحت شعار "**اعتقد ولا تنتقد**". ونجد في مقابل ذلك أن كثيرا من أهل البلدان المغاربية جاهدوا الصليبيين في الشام، واتصفوا بشجاعة نادرة، ولكن هذا موضوع آخر.

والشيخ أبو مدين، تبعا لهذا الشعار، لم يقاتل في معركة حطّين فحسب؛ بل جاهد الإفرنج في معارك أخرى مثل التي وقعت في "المغرب". ففي خبر مسند إلى أبي محمد صالح الدكالي **(.631هـ/1234م)** أنه أخذ "**سيفه، وخرج إلى الصحراء مع نفر من أصحابه، وجلس على كثيب، فإذا بين يديه خنازير قد ملأت الصحراء. فوثب حتى صار بينهم، وعلا بالسيف رؤوسهم حتى قتل كثيرا منهم...وكان بين الشيخ وبين المعركة [أي الموقع المادي لها] أكثر من شهر**"[42]. ونجدنا في هذه الحكاية، بالإضافة إلى الإبهام الزمني، أمام إبهام مكاني ومعنوي معا. فتحديد موقع المعركة بأرض "**المغرب**" لا يفيدنا مكانيا في شيء لأن هذا اللفظ بإطلاقه واسع الدلالة الجغرافية؛ إنه يشمل الأراضي الممتدة من الحدود الغربية لمصر إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)، ومن بحر الروم (البحر المتوسط) إلى بلاد السودان[43]. وقد يضاف إلى ذلك بلاد الأندلس. ويحدده بعضهم بغير هذا كأنْ يجعل بلاد طرابلس وإفريقية خارجة عنه. ولا يُزال الإشكال إلا عند تقييده بالأدنى أو الأوسط أو الأقصى، وإن كانت الحدود بين هذه الأقسام غير دقيقة ولا ثابتة.

أما من الناحية التاريخية فإن حروبا في عهد أبي مدين قد وقعت بين أهل طرابلس وإفريقية والمسيحيين النُّرْمان، واستطاع هؤلاء أن يحتلوا عدة موانئ وجزر ما بين سنتي **529 و541هـ** وكانوا قبل ذلك حاولوا احتلال المهدية فهزمهم المسلمون، ثم احتلوها بعد ذلك إلى أن حررها السلطان الموحدي عبد المؤمن بن علي سنة **555هـ**[44]. ومهما يكن فإن المهدية الواقعة على الساحل الشمالي الشرقي لإفريقية لا تبعد عن بجاية أكثر من مسيرة شهر.

وتَنسب حكاية أخرى إلى أبي مدين، في مجال الجهاد، تمكّنَه من إنقاذ أسارى كانوا عند الفرنج. فقد كان يمشي بجوار الساحل (أيّ ساحل، وفي أي تاريخ أو سنة؟)، فأسره الفرنج، وقادوه إلى سفينتهم. وأرادوا الإقلاع، فبقيت متسمرة في مكانها مع أن الرياح كانت تهب بقوة. وفكروا في السبب، فأيقنوا أنه الرجل الذي جاءوا به إليها. وطلبوا منه النزول، فأبى أن يفعل إلا أن يطلقوا سراح الأسارى المسلمين الذين كانوا فيها. ولم يجدوا بدّا من تلبية رغبته، فأقلعت سفينتهم حالا[45].

7. محاولة بعض معاصرينا تشويه عقيدته :

عمل الذين ذكروا أبا مدين في كتاباتهم على إبراز صلاحه وعلمه وتقواه، ولا نعلم أن أحدا منهم خرج عن هذا الخط العامّ على كثرة الذين ترجموا له أو ذكروا طرفا من أخباره وأقواله ومذهبه في السلوك. وقد اتفقوا على ذلك مع تنوع اهتماماتهم؛ فنجد بينهم الصوفية والمحدّثين والفقهاء والمؤرخين وغيرهم. ونجد في زمرتهم حتى مَن يجعلهم ناقصو العلم خطأً مناوئين للتصوف والصوفية كافة مثلَ ابن تيمية **(.728هـ/ 1328م)**؛ وقد ذكره في فتاويه فعده من "**المشايخ المتأخرين الأكابر**"[46]، ومن "**أكابر الشيوخ**"[47]، ولم يقل عنه إلا خيرا. ولكن ظهر في عصرنا تيار غالى أهله في ذمّ التصوف، أيّ تصوف، وجعلوا ديدنهم وصم الصوفية بأشنع الصفات دون تمييز بين السُّنّيّ منهم وغيره. ونسب أحدهم إلى أبي مدين ما هو براء منه كعدّه ضمْنا "**من فلول العُبَيديّين**"، وتسجيل اسمه في معشر الذين عدّهم من القبوريين ودعاة الشرك؛ فقد ذكر أن من دعاة الباطنية، في زعمه، عدّة شيوخ تصوف منهم أبو الحسن الشاذلي **(.656هـ/**

1258م)، ثم قال عنهم مؤكدا زعمه: «**وجميعهم من فلول العبيديين الذين طردهم صلاح الدين الأيوبي من مصر، ثم حاولوا العودة تحت ستار التصوف والزهد... كما أن كلا من ابن بشيش و ابن عربي قد تتلمذ على أبي مدين بالمغرب. وفي أواخر عهدهم أنشأ الفاطميون المشهد الحسيني**»[48].

وقد تضمن كلامه جملة أخطاء فاحشة لا نتناولها كلها تجنبا للاستطراد، بل نقتصر على ما له علاقة بأبي مدين. فلا مسوّغ لإقحام اسمه في معرض الكلام عن فلول العبيديين فيعتقد القارئ غير العارف أنه منهم. ولا يعيب أبا مدين أن يكون هذا الشخص أو ذاك من تلامذته؛ فكلٌّ مسؤولٌ عن عقيدته ونشاطه، وليس من الضرورة أن يكون التلميذ نسخة من شيخه. ولكن الواقع أنه ليس ابن بشيش (وهو مشهور في البلاد المغاربية بابن مشيش، ت سنة **622 أو625هـ/ 1225 أو 1228م)** ولا ابن عربي **(638هـ/ 1240م)** قد تتلمذ على أبي مدين؛ ففي أي مصدر وجد هو ذلك؟ ونحن نعلم أن ابن قنفذ حاول أن يستقصى في كتابه «**أنس الفقير**» أشياخ أبي مدين وإخوانه وأصحابه، ولم يذكر ابن بشيش من بينهم، وإنما انتشر هذا الزعم أيام السعديين بعد أن تحولت الحياة الصوفية إلى طرقية محرفة[49]. أما ابن عربي فلم نجد أحدا عدّه من تلاميذ أبي مدين، في حدود اطلاعنا على كثير من تراجمه. واهتم هو نفسه بذكر طائفة كبيرة من الشيوخ والصلحاء الذين لقيهم، فعدّ منهم واحدا وخمسين رجلا بأسمائهم[50]، ولم يجعل أبا مدين ضمنهم مع أنه أشهر منهم جميعا. وهو مع ذلك كثيرا ما يقول عنه «**شيخنا**» أو «**من شيوخنا**»[51]، وربما قال عنه «**سيدنا**»[52]. ولكنه، لم يذكر شيئا يدل على لقائه به مثل لقيته أو صافحته أو سمعته. كذلك لا نعلم أن ابن عربي دخل بجاية في حياة أبي مدين؛ بل «**في شهر رمضان المعظم سنة سبع وتسعين وخمسمائة**»[53]، أي بعد وفاة أبي مدين بثماني سنوات. فنفهم أنه أضاف الشيخ إلى نفسه توقيرا له وتعظيما. ونجد الدليل القاطع على ذلك في إجازة له كتبها سنة **632هـ/ 1234م**، وقد ضمّنها طائفة شيوخه، ولم يجعل أبا مدين بينهم[54].

وحينما ضمّ كاتب «**مجلة البيان**» أبا مدين إلى زمرة القبوريين والدعاة إلى الشرك لم يستشهد بأي نص منسوب إليه؛ وأنى له أن يستشهد بما هو معدوم؟ ولو عاد إلى بعض المصادر واطلع فيها على فكر أبي مدين لوجد كلامه نافيا كل النفي ما اتهمه به. ولْيتأمل مثلا هذه الكلمات التي كان يوصي بها أصحابه والمسلمين كافة:

- «**إياك أن تميل إلى غير الله فيسلبك لذة مناجاته**»[55].
- «**توكل على الله حتى يكون الغالب على ذكرك؛ فإن الخلق لن يغنوا عنك شيئا**»[56].
- «**احذر صحبة المبتدعة اتقاء على دينك**»[57].

فذلك الكاتب لم يعتمد على المصادر في إصدار أحكامه، ونعتقد أنه بناها على وجود ضريح شهير لأبي مدين يقصده الزوار من الآفاق. غير أن أبا مدين لم يوص ببناء ضريح عليه ولا دعا إلى زيارته، والذنب يقع على من فعله .

8. خاتمة:

وبعد، فإن سير الأشخاص ليست عقيدة، بل هي جزء من التاريخ، ولنا أن لا نقبل من أخبارهم إلا ما تمّ التحقق من صحته؛ وإنما نتوصّل إلى ذلك بالتزام منهج المحدّثين وتطبيق المنهج التاريخي. وإذا كان التثبت ضروريا عند تلقّي الأخبار العاديّة فمن باب أولى يلزمنا التثبت منها حينما يُروى الخبر عن أمر خارق للعادة، أو يكون ماسّا بمكانة من أجمع السلف والخلف على صلاحهم. وقد حذّرنا الله تعالى من تقبل الأخبار دون تثبت فقال: (.... **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ....**) (الحجرات:آ6). والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

9.الهوامش:

(1) التادلي (أبو يعقوب يوسف بن يحيى .المعروف بابن الزيات): التشوف إلى رجال التصوف. تحقيق أحمد التوفيق. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء .1997(ط2)، 324.

(2) أثبت بعض المؤلفين ترجمته تبركا وإن لم يكن لها اتصال بموضوع كتابه مثل الغبريني في «عنوان الدراية» الذي خصصه لتراجم أهل المائة السابعة، وأبو مدين ليس منهم. انظر طبعته بتحقيق رابح بونار. ش و ن ت، الجزائر .1981، 65.55، 192. وكذلك المقري الذي قال في آخر ترجمته له: «وإنما ذكرت ترجمة سيدي الشيخ أبي مدين للتبرك به». المقري (أبو العباس أحمد .): نفح الطيب. تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت .1968/1388، 144/7.

(3) له لمح الهيج ونفح الأريج في ترجيز كلام أبي مدين. ينظر المقري. م.س، 145/6.

(4) له أنس الفقير وعز الحقير. حققه محمد الفاسي وأدولف فور. منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط .1965. وقد خصص أكثره للكلام عن أبي مدين وأصحابه ومن لهم صلة سنَديّة به.

(5) له شرح حكم أبي مدين. ينظر: ا .المحبي (محمد أمين بن فضل الله): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. المطبعة الوهبية بمصر . 1284هـ، 158/1. ب .إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. مكتبة المثنى، بغداد، ووكالة المعارف الجليلة . إسطنبول .1951.1955، 156/1.

(6)Vie du célèbre marabout cidi Abou Medien. Paris-1884.

(7) له المواد الغيثية الناشئة عن الحكم العطائية. المطبعة العلاوية، مستغانم .1989 و1994.

(8) أنجز رسالة دكتوراه دولة بعنوان «الصوفي أبو مدين شعيب التلمساني/حياته وأدبه بين الاتباع والإبداع». نوقشت بجامعة تلمسان سنة 1425هـ/ 2004م.

(9) العلاوي (أحمد بن مصطفى): م.س، 14/1.

(10)Marçais (G.-) : Abû Madyan. In Encyclopédie de l'Islam.1/141

(11) النهاني (يوسف.): جامع كرامات الأولياء. ضبطه وصححه الشيخ عبد الوارث محمد علي. دار الكتب العلمية، بيروت .1996/1417، 101/2. ونجزم بأنه كان حيّا قبل هذه السنة لأنه توفّي زمن حكم أبي يوسف يعقوب المنصور.

(12) ا .التادلي: م.س، 319. ثم قال: «وقيل عام ثمانية وثمانين». م.ن. ب .ابن قنفذ (أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب المعروف بـ): كتاب الوفيات. تحقيق عادل نويهض. دار الإقامة الجديدة، بيروت .1978، 297.

(13) ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب. دار المسيرة، بيروت .1979/1399، 303/4.

(14) ابن عربي الحاتمي: الفتوحات المكية. ضبطه وصححه أحمد شمس الدين. دار الكتب العلمية، بيروت .1999/1420، 287/7.

(15) م.س.، 4/2.

(16) التادلي: م.س، 320.

(17) م.س، 321.

(18) م.س، 320.

(19) نوضّح هنا أن طريقة المغاربيين المتوارَثة حتى الآن في حفظ القرآن تُلزم الدارس بحفظ الفاتحة أولاً، ثم يتوالى حفظ السور تنكيسا: سورة الناس فالفلق فالإخلاص، الخ. فيُفهَم من ذلك الزعم أن أبا مدين لم يقرأ من القرآن إلا جزأيه الأخيرين.

(20) الغبريني: م.س، 58.

(21) التميمي الفاسي (محمد بن عبد الكريم): المستفاد في مناقب العُبّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد. تح محمد الشريف. مطبعة طوب بريس، الرباط .2002 (ط.1)، 41/2-45.

(22) التادلي: م.س، 319.326.

(23) ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بـ): التكملة لكتاب الصلة. تحقيق عبد السلام الهراس. دار الفكر للطباعة، لبنان .1995/1415، 137/4.138.

(24) التميمي الفاسي: م.س، 42/2.

(25) التدلي: م.س، 321.

(26) المقري: م.س، 138/7.

(27) ا. بوراس المعسكري: عجائب الأسفار. الترجمة الفرنسية بقلم أرنو Arnaud. في Revue Africaine, 1881,p.373؛ ب. Marçais: م.س، 141/1.

(28) التادلي: م.س، 332.331. ونقله أيضا ابن قنفذ: م.س، 91. وقصر كتامة هو الذي يسمى حاليا القصر الكبير (التادلي: م.س، 228. هـ533 لمحققه) في شمال المغرب الأقصى. ويقع شمال غرب فاس، ويصل بينهما طريق جبلي يزيد طوله على 200كم. وهو قريب من مدينة العرائش الساحلية (أقل من 40كم) التي يقع في جنوبها الشرقي.

(29) جلاب (حسن): الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب. المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش. 1994، 85.84/1.

(30) ا. التادلي: م.س، 320، 322. ب. المقري: م.س، 137/7.

(31) الغبريني: م.س، 192.

(32) ابن قنفذ: أنس الفقير. م.س.، 92. واسمه في هذا المصدر «أبو عبد الله محمد بن حمادو الصنهاجي من قلعة بني حماد»

(33) م.س، 63.

(34) فضلنا استعمال هذا التعبير لأن مدلول إفريقية غير محدد بدقة، وكان يشمل في بعض الأحيان بجاية نفسها.

(35) بونابي (الطاهر): التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7هـ/ 12 و13م. دار الهدى، عين مليلة. 2004، ص71. وقال في مكان آخر: «دخل أبو مدين بجاية في عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور» (م.س، 121) الذي تولى السلطة من 580هـ/ 1184م إلى 595هـ/ 1199م. فنلاحظ فرقا زمنيا واسعا بين قوليه.

(36) انظر جريدة «الخبر». ع6284، 2011.3.4، تحت عنوان: «سيدي بومدين..جزائري عند صلاح الدين الأيوبي».

وممن ذكر جهاد أبي مدين في فلسطين أيضا الدكتور إبراهيم باجس (مركز البحوث. الرياض). انظر «علماء تلمسان وبيت المقدس». في «الملتقى الدولي: المفكرون والشخصيات اللامعة في تلمسان»، جامعة أبو بكر بلقايد، من 18 إلى 20 أبريل 2011م. وذكر كذلك أن ذراعه ما تزال مدفونة هنالك.

(37) أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤوط، وقدم له بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة، بيروت. 1413/1993(ط9)، 220.219/21.

(38) تحقيق عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي، بيروت. 1407/1987، 399.398/41.

(39) حققه ابو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول. دار الكتب العلمية، بيروت. د.ت، 103/3.

(40) انظر على سبيل المثال: ا. ابن الأثير (عز الدين علي بن أبي بكر محمد بن محمد بن عبد الكريم المشهور بـ.): الكامل في التاريخ. دار بيروت، بيروت. 1402/1982، 538.534/11؛ ب. الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان): تاريخ الإسلام. م.س، 23.18/41.

(41) ممن نقل هذه الرواية (دون توثيق) حسين فارسي: م.س، 13.

(42) النهاني: م.س، 98/2.

(43) انظر المقدسي (محمد بن أحمد): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق غازي طليمات. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق. 1980، 91.

(44) المطوي (محمد العروسي .): الحروب الصليبية في المشرق والمغرب. دار الغرب الإسلامي، بيروت. 1982، 225.224، 227.

(45) ممن تناقل هذه الحكاية اليافعي اليمني (أبو محمد عبد الله بن سعد): مرآة الجنان وعبرة اليقظان. حيدر آباد. 1334هـ، (حوادث سنة 590). ولهذه الحكاية عدة نظائر نُضرب عن الاستطراد في ذكرها.

(46) ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد -): مجموعة الفتاوي. تحقيق عامر الجزار وأنور الباز. دار ابن حزم، غ. 1418/1997، 427/3.

(47) م.س، 534/11، 604، 629.

(48) خالد محمد حامد: فسطاط الخرافة..الجذور والواقع. في «مجلة البيان». ع131، رجب 1419/ نوفمبر1998، ما بين ص40 و50. وهو يحيل نقله عن بعض المؤلفين المعاصرين. ولكن إن لم يجد الباحث بدا من إصدار أحكام فلا بد له من التروي والتثبت بالرجوع إلى المصادر، ولا يجوز له في هذه الحالة تبنّي أي شيء ينشر.

(49) ابن قنفذ: أنس الفقير. م.س، صفحتا ز-ط من تقديم محمد الفاسي أحد محققَي الكتاب. ونشأت الدولة السعدية في أجزاء من المغرب الأقصى خلال ق10هـ/16م.

(50) ينظر محمود محمود الغراب: شرح رسالة روح القدس في محاسبة النفس، من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي. مطبعة نضر، د.م. 1414/ 1994 (ط2)، 133.66.

(51) انظر مثلا الفتوحات المكية. م.س، 180/1، 253، 261، 388..الخ؛

(52) ينظر محمود محمود الغراب. م.س، 49.

(53) الغبريني: م.س، 158.

(54) ا .النهاني: م.س، 1/163-168؛ ب .ابن عربي: م.س، 1/7-11، نقلا من ناشره عن النهاني.

(55) ابن قنفذ: م.س، 18.

(56) م.ن.

(57) م.س، 19.